

أحمد البدوي: بين الترجمة الصوفية وميزان الشريعة

يصعب الحديث عن أحمد بن علي البدوي (المعروف في الوجдан المصري بـ"السيد البدوي") دون تمييزٍ صارم بين ثلاث طبقات من المعرفة:

(1) ما يرويه كتابُ الطبقات الصوفية من أخبارٍ ومناقب، (2) ما تراكم في التدين الشعبي من أساطير وطقوس حول الضريح والمولد، (3) وما يثبت أو يُرد حين يُعرض الجميع على محاكمات الوحي وأصول النقد التاريخي.

تقديم لنا كتب المناقب الصوفية صورةً مبكرةً عن البدوي: مولده بالمغرب، ثم انتقاله إلى مكة، ثم توجهه إلى "طندتا/طنطا" بأمر راه في المنام في شوال سنة 633هـ، وأنه كان شديد الستر "كثير التلثم" حتى لقبوه بالبدوي، وأنه كان في مكة يُعرف بالشجاعة، ثم طرأ عليه

ما سُمي "حادث الوله" فاعتزل الناس ولازم الصمت، وصار لا يكلم إلا بالإشارة، ويعلّل بعض العارفين هذا التحول بأنه "جمعية على الحق" استغرقته. ويزيد ناقلو الرواية أنه لما قصد العراق لقي "أشياخها" ومنهم عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي، وأنهما عرضا عليه "مفاتيح الأقاليم" فرفض قائلاً: لا آخذ المفتاح إلا من الفتاح. هذه الرواية بذاتها تكشف طبيعة الأدب المناقبي: أحداث تُساق للتعظيم لا للتحقيق؛ إذ إن لقاء البدوي بالجيلاني والرفاعي – على ظاهره – يثير إشكالاً تاريخياً واضحاً بسبب الفارق الزمني، مما يرجح أن القصة تُروى بروح الإشارة والتمثيل أو تُقبل عند أهلها على أنها كرامة/لقاء معنوي، لا واقعة تاريخية قابلة للتوثيق الدقيق. ومع ذلك، تُستعمل لاحقاً في تشكيل "الهيبة" حول الشخصية، وتغذّي قابلية المجتمع لتلقي الخوارق بلا ضابط.



ومن أصرح ما يبرز أثر "التقديس" على حساب "التعبد" ما يورده بعض مصنفي طبقات الصوفية أنفسهم في سياق الخلوة والعزلة. فقد نقل عن عبد الرؤوف المناوي أنه ذكر إقامة البدوي بطنطا على سطح دار "لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً" مدة اثنين عشرة سنة، وأنه إذا عرض له الحال صاح صياغاً عظيماً. وهذه الصياغة - حتى لو قصدت تعظيم شأن المجاهدة - تفتح سؤالاً شرعاً لا مهرب منه: كيف تفهم عزلة بهذا الامتداد مع المحافظة على شعائر الجمعة والجمعة؟ قد يقول قائل: لعله كان ينزل للصلة ثم يعود، لكن النص المتداول يصور ملازمة تامة "لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً"، وهو ما يجعل الغياب عن الجمعة والجماعات نتيجة قريبة بحسب الظاهر والعادة، لا سيما في مجتمع تعيش فيه الصلاة جماعة بوصفها هوية يومية. ومن هنا نشأت في السجال المعاصر - حتى من داخل المجال الصوفي - إشارات إلى لقب "السطوحي" وربطه بالمقام على السطوح، وتحول الأمر إلى مادة نقد شعبية: إذا كانت الولاية تُقاس باتباع الرسول وعمارة الفرائض، فكيف تجعل "الخلوة" ذريعة لتقديم الحكایة على العبادة؟

ولأن البدوي شخصية خلافية، فإن الإنصاف يقتضي أمرين معاً: عدم الجزم بما لم يثبت بسند مضبوط وتاريخ محقق، وعدم تمرير ما يخالف أصول الدين باسم "المحبة" و"البركة". فالمشكلة في التجربة الصوفية - حين تنفلت من الشريعة - ليست في "تزكية النفس" من حيث المبدأ، بل في تحويل الولي إلى مركز تدين بديل: الاستغاثات، والنذور للقبور، واعتقاد التصرف في الكون، وتقديم المنامات والكشف على النص، ثم بناء مواسم ضخمة حول الضرائح ستهلك فيها العاطفة الدينية وتذبل معها المعرفة والاتباع.

ومن زاوية علم الاجتماع الديني: تُنْتَجُ هَذِهِ الصُّورَةُ تَدِينَاً احْتِفَالِيًّاً أَكْثَرَ مِنْهُ تَدِينَاً التَّزَامِيًّاً؛ إِذْ تُسْتَبَدُّ الْعِبَادَةُ الْمُنْضَبَطَةُ بِطَقَّ وَسُجُونًا جَمَاهِيرِيَّةٍ تُمْنَحُ شَعُورًا سَرِيعًا بِاللَّانِتَمَاءِ وَالْطَّمَائِنَةِ، لَكُنُّهَا قَدْ تُضَعِّفُ «الْمَسْؤُلِيَّةَ الْفَرْدَيَّةَ» عَنِ التَّكَالِيفِ، وَتُخْلِقُ سُوقًا لِلرموزِ وَالْبَرَكَاتِ، وَتُعِيدُ تَوْزِيعَ السُّلْطَةِ الْدِينِيَّةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَقْهِ إِلَى الْكَرَامَةِ وَالْحَكَايَةِ. وَحِينَ يَعْتَرِضُ الْمَجَمُوعُ عَلَى هَذِهِ الْمَظَاهِرِ فَهُوَ فِي جَانِبِ مُعْتَرٍ يُعَتَرِضُ عَلَى تَشْوِهِ مَعيَارِ الْقَدْوَةِ: الْقَدْوَةُ عَنْهُ هِيَ مِنْ دَلِيلِ اللَّهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، لَا مِنْ اشتَهَرَ بِالْقَصْصِ وَالْخَوَارِقِ.

إِنْ خَلاَصَةَ النَّظَرِ النَّقْدِيِّ فِي أَحْمَدَ الْبَدْوِيِّ لِيُسْتَ «الْطَّعْنُ فِي الْأَعْيَانِ» وَلَا التَّشْفِي مِنَ الرَّمْوزِ، وَإِنَّمَا إِعَادَةُ ضَبْطِ الْبُوَصَلَةِ: الْوَلَايَةُ الْحَقَّةُ تُعْرَفُ بِلِزْوَمِ السَّنَةِ وَتَعْظِيمِ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِكِ وَالْبَدْعِ، وَمَا عَدَ ذَلِكَ - مَهْمَا زَخْرَفَهُ الْقَضَاصُ - يَقْبَلُ مَحْتَاجًا إِلَى مِيزَانٍ يَرْدِدُ الْغَلُوَّ إِلَى الْعَدْلِ، وَيَعِيدُ التَّدِينَ مِنْ «الْمَوْسَمِ» إِلَى «الْمَسْجَدِ»، وَمِنْ «الْحَكَايَةِ» إِلَى «الْحَجَّةِ».



المصادر:

- عبد الوهاب الشعراوي، الطبقات الكبرى (لوافح الأنوار في طبقات الأخيار)، ترجمة أحمد البدوي، ج 1 ص 155 (نص إلكتروني مطابق لصفحات).
- عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (إشارة إقامة البدوي على السطح اثنتي عشرة سنة: ج 2 ص 63) - نسخة أرشيف الإنترنت.